

الصوت محاضرة ١٣ : الخليل والأصوات

الدراسات الصوتية عند العلماء العرب القدماء

١- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)

عني اللغويون العرب بدراسة الاصوات منذ وقت مبكر ، اذ لم تكن عملية جمع اللغة وتدوينها قد انتهت حتى شرع الخليل بانشاء معجم العين الذي بُني ترتيب الكلمات فيه على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي ، ولا ريب في هذا ؛ لأن الفراهيدي من العباقرة الذين أوتوا عقولا كبيرة ، فالخليل كما وصفه العلماء : كان عقله أكبر من علمه ، فضلا على وضعه علم العروض (العلم الذي يقوم على تفصيلات الشعر وأوزانه) ويبدو أن امتلاك الخليل لأذن موسيقية وحس مرهف ساعده على وصف مخارج الحروف من جهاز النطق مبتدئا بأقصاها من جهة الجوف ، ثم الى أدناها عند الشفتين .

فالخليل حصر الحروف في تسعة وعشرين حرفاً ، منها خمسة وعشرون حرفا صحاحاً ، وأربعة هوائية ، على النحو الآتي :

- ١- العين والحاء والهاء والحاء والغين حلقيه ؛ لأن مبدأها من الحلق .
- ٢- القاف والكاف لهويّة ، لأن مبدأها من اللهاة .
- ٣- الجيم والشين والضاد شجرية ، لأن مبدأها من شجر الفم .
- ٤- الصاد والسين والزاي أسلية ، لأن مبدأها من أسلة اللسان .
- ٥- الطاء والذال والتاء نطعية ، لأنها تخرج من نطع الغار الاعلى .
- ٦- الطاء والذال والتاء لثوية ، لأن مبدأها من اللثة .
- ٧- الراء واللام والنون ذلقية ، لأن مبدأها من ذلق اللسان .
- ٨- الفاء والباء والميم شفوية ، لأن مبدأها من الشفة .

٩- الياء والواو والالف والهمزة هوائية ، لأنها هوائية لا يتعلق بها شيء

وأشار الخليل أيضا الى الصوت المجهور والمهموس ؛ فتسمّى المجهور مرتفعا كالدال ، وسمّى المهموس منها خافتا كالتاء ، أو قل : إنه وصف الصوت المهموس بالخفوت ، من حيث إنه كما هو ثابت في الدراسات الصوتية الحديثة - أقلّ وضوحا غي السمع من المجهور ، كما سمّى الشديد : صُلْباً .

وعرف الخليل من صفة الذلاقة في عدد من الحروف ، أنها كثرت في كلام العرب لسهولة وسهولتها وأن وجودها في لفظة ما او عدمه ، كاشف عن عربية تلك اللفظة أو عدمها ، يقول : فلما نلقت الحروف الستة ، ومَدَلَّ بهنَّ اللسان وسَهَلَّت عليه في النطق ، كثرت عليه في أبنية الكلام ، فليس شيء من بناء الخماسي التام يعري منها أو من بعضها ، ثم يقول الخليل : فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلق الشفوي ، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد او اثنان او فوق ذلك ، فاعلم ان تلك الكلمة محدثة مبتدعة ، ليست من كلام العرب ، لأنك لا تسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية الا وفيها حروف الذلق والشفوية اثنان أو أكثر .

وغير العرب أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ؛ إرادة اللبس والتعنّت ، أو بعبارة اخرى : أنهم يرتجلون الفاظا ويزعمون ان العرب قالتها ، ولكن أمرهم سيكشف وشيكاً بعد أن ينظر في هذه الالفاظ فيعلم أنها ليست من كلام العرب في شيء ، لخلوّها من حروف الذلاقة التي وصف ، وقد بيّن ان الهمْخُع مما رُدّ ولم يقبل .

ولذلك فان ثقافة الفراهيدي الصوتية كان لها الموقف الكبير في تحديد متن اللغة من خلال اخراج ما ليس منه .

ومن المعلوم أنه انتهى بعد تقليباته المعروفة للمادة اللغوية على صورها المختلفة الى ان الكلام مهمل ومستعمل ، فطرح المهمل وعقد معجمه على المستعمل ، لأنه هو الذي يمثل واقع اللغة ومفرداتها .

وكان الخليل اول من سمى صوت الحرف الذي يصدر منه جرساً ، وهي تسمية صوتية دقيقة ومقبولة في حساب البحث اللغوي الحديث ، فهو مثلاً يصف العين والقاف بأنهما اطلق الحروف وأضخمها جرساً ، ولذلك فإنهما فيما يرى لا تدخلان في أي بناء لغوي الا زادته حسنا ورونقا .

وفي تدقيقه للبحث في القضايا الصوتية توصل الخليل الى وجود علاقة وطيدة بين اصوات الطبيعة وبين المعاني ، وهي ما يطلق عليه المحدثون من اللغويين اسم (الدلالة الصوتية) ، ومن ذهب اليه (همبلت) و (جسبرسن) ، وسمى الاخير هذه الظاهرة بـ (رمزية الالفاظ) يقول الخليل : والعرب تشتق في كثير من كلامها أبنية المضاعف من بناء الثلاثي المثقل بحرفي التضعيف ... ثم يقول ممثلاً له بـ (صرّ) و (صرصر) : صرّ الجندبُ صريراً ، وصرصر الأخطب صرصرةً ، فكأنهم توهّموا في صوت الجندب مدّاً ، وتوهّموا في صوت الأخطب ترجيعاً ، وهكذا أدرك الخليل الفرق بين صرّ وصرصر في كلام العرب ، فرأى أنّهم تخيلوا في صوت الخطب وهو الشقراق أو الصقر تقطيعاً فقالوا: صرصر ، على وفق ذلك الصوت ، وتخيّلوا في صوت الجندب ، وهو جرادة خضراء كبيرة وطويلة مدّاً ، فقالوا : صرّ محاكاة لذل الصوت فلم يكرروا الصاد ويفكّوا ادغام الراء .

وقد لاحظ الدارسون المحدثون ان عمل الخليل قد اعتراه الاضطراب وتناقض الآراء ، فضلاً على تعدد المصطلحات ، فهو مرّة يذكر مصطلح (المخارج) واخرى يذكر (المدارج) وثالثة يذكر (الأحياز) ، ورابعة يذكر (المبادئ) ، ولعل السبب في هذا التنوع في المصطلحات يرجع الى ان الخليل أطلق تلك الراء والنظرات خلال فترات متباعدة ، وفي سياقات مختلفة ، بعضها قصد فيها الاصوات وحدها ، وبعضها قصد تطبيقها في المعجم واخرى كانت مجرد كلمات عابرة وردت في تضاعيف شروحه اللغوية كان جمعها بعد حين فظهر هذا الاختلاف .